صاحبة الشعر الذهبي

حدثت هذه القصة في قديم الزمان، ولم يكن الروس موجودين في تلك المناطق كما أن الباشكير لم يكونوا يعيشون على مقربة من هذه المناطق، فقد كانوا يحتاجون إلى المراعي لتربية الماشية.

بينما انتشرت في هذه المناطق غابات كثيفة، ولم يدخل الغابات إلا الذين يريدون اصطياد الحيوان.

وكان من بين الباشكير صياد يدعى آيليب، وكان أمهر الجميع، فقد كان يصطاد الدب من رمية سهم واحدة، ويمسك الأيل من قرنيه ويقلبه فيقتله فوراً، ولا داعي للحديث عن الذئاب والحيوانات الأخرى فلن يفلت منه ذئب واحد، وليس على آيليب إلا أن يراه.

وهكذا كان آيليب في إحدى المرات يركب حصانه في مكان مكشوف فرأى ثعلبة تركض، وكانت الثعلبة صيداً ضئيلاً بالنسبة لصياد مثله، ولكنه فكر في نفسه: "دعني أتسلى بصيدها، فأقتلها بالسوط".

فاندفع آيليب على حصانه باتجاه الثعلبة، ولكنه عجز عن اللحاق بها، فجهز قوسه ليطلق السهم، ورأى أن الثعلبة اختفت. حسناً ماذا إذاً؟ هربت الثعلبة فذلك

obeikandl.com

من حسن حظها. وما إن فكر بذلك، حتى رأى الثعلبة تجلس خلف جذع شجرة مقطوعة وتنظر إليه وكأنها تقول:"أنّى لك أن تصطادني؟".

فاستعد آيليب ليطلق السهم الثاني واختفت الثعلبة من جديد. فأنزل السهم وعادت الثعلبة للظهور وهي تحرك فمها ساخرة ولسان حالها يقول: أنّى لك أن تصطادني.

فاشتعلت لدى آيليب روح المغامرة، وقال:"حسناً انتظري أيتها الشقراء".

ودخل آيليب في القسم الكثيف من الغابة، ولكنه لم يتوقف عند هذا الحد، فنزل عن حصانه وركض خلف الثعلبة، ولم يحالفه الحظ أيضاً. فقد كانت الثعلبة قريبة، ولكن لم يتسن لآيليب أن يطلق السهم ، كما لم يستطع التراجع أيضاً. فكيف يعقل أن يعجز صياد مثله عن اصطياد ثعلبة. وهكذا دخل آيليب في منطقة مجهولة تماماً بالنسبة له، واختفت الثعلبة أيضاً، بحث آيليب عن الثعلبة طويلاً ولم يجدها، وفكر في نفسه:"دعني على الأقل أعرف أين أنا".

فاختار شجرة عالية وتسلقها حتى قمتها، ونظر حوله فرأى قريباً منه نهراً يجري من قمة الجبل، وكان النهر صغيراً وسعيداً وعلى ضفتيه أحجار صغيرة، وفيه مكان يلمع بشدة لدرجة لا تتحملها العين. ففكر آيليب:"ما هذا يا ترى؟" فنظر ورأى خلف الحشائش فتاة تجلس فوق حجر أبيض وتبدو رائعة الجمال وقد أنزلت طرف جديلتها الذهبية الطويلة إلى الماء وقد أضاءت النهر بنور ساطع.

فوقف آيليب مبهوراً بجمال الفتاة، بينما رفعت الفتاة رأسها وقالت:

مرحباً آيليب، قد سمعت عنك من مربيتي الثعلبة منذ زمن بعيد. وأخبرتني أنك أضخم الجميع وأجمل الجميع وأقوى الجميع وأنجح الجميع. فهل تريد أن تكون زوجاً لي؟

وما هو المهر الذي تطلبينه؟

أي مهر أطلب ووالدي سيد الذهب كله؟ لا إن والدي لن يزوجني ببساطة، وعلينا أن نهرب إن كان لديك ما يكفي من الشجاعة والمهارة.

فرح آيليب كثيراً ونزل من فوق الشجرة وركض إلى المكان الذي جلست فيه الفتاة، وقال: حسناً طالما أن هذه رغبتك فأنا موافق، وسأحملك على يدي ولن أسمح لأحد بأخذك مني.

وفي هذه اللحظة ظهرت الثعلبة عند الحجر ودقت أنفها بالأرض وتحولت إلى عجوز نحيفة وقالت: يا آيليب، لا تقل كلاماً عبثاً، فأنت تتفاخر بالقوة والنجاح، ولم تستطع أن تصيبني بسهم.

نعم هذا صحيح... أجاب آيليب – فأنا لأول مرة يحدث معي شيء كهذا.

فقالت العجوز: اعلم أن الوضع سيكون أصعب في هذه الحالة، فهذه الفتاة ابنة ملك الذهب، وتدعى بصاحبة الشعر الذهبي، فشعرها من الذهب الخالص، وهذا الشعر هو الذي يقيدها إلى مكانها، فهي تجلس وتغسل شعرها في ماء النهر ولكن وزنه لا ينقص، حاول أن ترفع منديل شعرها، وستعرف إن كنت تستطيع حملها.

وكان آيليب رجلاً قوياً، فأخرج جديلة الفتاة من الماء ولفها حوله عدة لفات، وقال للفتاة: حسناً يا عروسي يا صاحبة الشعر الذهبي، لقد ربطتنا جديلتك بقوة، ولن يستطيع أحد تفريقنا.

قال ذلك وحمل الفتاة على يديه وسار بها. فمدت العجوز له مقصاً وقالت: خذ أيها الذكي ستحتاجه.

فرد آيليب: ولماذا أحتاجه فلدي سكيني.

ولم يكن ليأخذ المقص لولا أن الفتاة أقنعته قائلة: خذه يا آيليب فإن لم تحتجه أنت احتجته أنا.

وهكذا سار آيليب في طريق الغابة، فقد اتضح لديه من فوق الشجرة إلى أين عليه أن يسير. وكان يسير بنشاط في البداية ولكنه شعر بالتعب أيضاً، فصحيح أنه كان قوياً جداً إلا أنه كان من البشر. ورأت العروس أن آيليب تعب فقالت له: دعني أمشي بنفسي وأنت احمل جديلتي، وسيكون السير أسهل فنبتعد أكثر، وإلا اكتشف

أبي غيابي فيجذبني إليه فوراً.

وكيف يجذبك؟... سأل آيليب.

لديه قوة سحرية بجذب الذهب، فباستطاعته أن يسحب إليه إلى أعماق الأرض أي ذهب يشاء، فإن أراد جذب شعري جذبه بسهولة.

حسناً هذا ما سنراه... رد آيليب، بينما ضحكت عروسه صاحبة الشعر الذهبي.

وبقيا يسيران بهذه الطريقة وهما يتحدثان، وكانت الفتاة تحث آيليب على الإسراع وتقول: علينا بالخروج مسافة أبعد، عسى ألا تكفي قوة أبي لجذبنا.

وبقيا يسيران حتى شعرا بالتعب فقال آيليب: دعينا نرتاح قليلاً.

ولكن ما إن جلسا فوق العشب حتى سحبتهما الأرض إلى أعماقها، واستطاعت صاحبة الشعر الذهبي أن تمسك بالمقص وتقص شعرها الذي لف آيليب نفسه به، وكان هذا هو الشيء الوحيد الذي أبقى على حياته، فذهب الشعر إلى أعماق الأرض وبقي آيليب فوق الأرض. ولكن الأرض ضغطت عليه قليلاً، أما العروس فقد اختفت تماماً، وكأنها لم تكن. خرج آيليب من الحفرة وجلس يفكر:"ما هذا لقد أخذوا منه عروسه ولا يدري من الذي أخذها، يا للعار وأنا لن أسمح بذلك أبداً وسأبقى أبحث عنها طالما أنني حي".

وأخذ يحفر الأرض في المكان الذي جلست فيه الفتاة، وبقي يحفر يوماً ثم يومين، ولكن ذلك لم يكن كافياً، فقد كان آيليب قوياً، ولكنه لم يكن يحمل معه أدوات، فليس معه سوى السكين والقبعة. فماذا يفعل بهما؟ وفكر آيليب في نفسه:"علي أن أترك إشارة في هذا المكان وأعود إلى البيت، وأحضر المجرفة".

وما إن فكر بذلك حتى حضرت الثعلبة التي أدخلته في ذلك المكان، فلمست الأرض بأنفها وتحولت إلى عجوز نحيفة وقالت: أنت يا أيها الذكي، هل تسعى لاستخراج الذهب أم ماذا؟

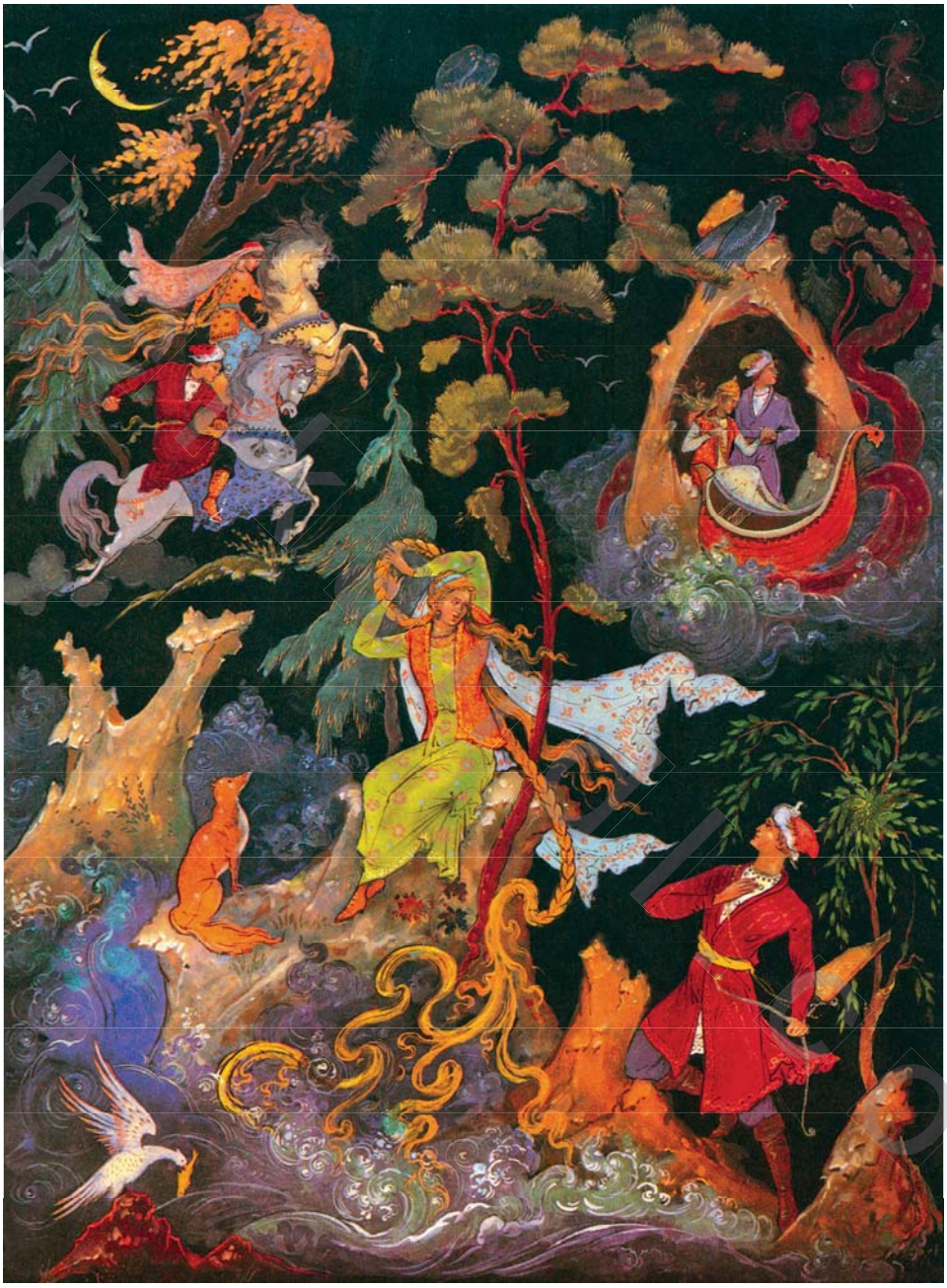

لا إنني أبحث عن عروسي... أجاب آيليب.

إن عروسك منذ زمن تجلس في المكان القديم، وتذرف الدموع وتبلل جديلتها في ماء النهر، وزاد طول جديلتها مرتين.

فما الحل يا خالة؟... سأل آيليب.

كان عليك منذ البداية أن تسأل لتعرف، ثم أن تفعل. وسيكون عليك القيام بالتالي، عد إلى دارك وعش هناك كما كنت تعيش في السابق. فإذا لم تستطع نسيان عروسك صاحبة الشعر الذهبي خلال ثلاث سنوات، فإنني سأعود لآخذك ثانية. أما إذا ذهبت للبحث عنها وحدك فلن تراها مرة ثانية أبداً.

ولم يكن آيليب معتاداً على الانتظار كل هذه المدة، فقد كان معتاداً على الدخول في خضم المعركة مباشرة، ولكن ليس باليد حيلة فعليه أن يصبر. وهكذا عاد حزيناً إلى بيته.

وامتدت السنوات الثلاث حتى بدا لآيليب وكأنه لن تأتي لها نهاية. فيأتي الربيع وهو ليس سعيداً به، ويتمنى أن ينتهي سريعاً. وصار الناس يلاحظون تغيراً في أحوال آيليب، فلم يعد سعيداً ومرحاً كما كان في السابق. وكان أهله يسألونه:

هل أنت مريض يا آيليب؟

فأمسك آيليب بخمسة أشخاص بيد واحدة ورفعهم وسأل: إذا سألتموني مرة ثانية عن صحتي رميتهم جميعاً خلف ذلك التل.

ولم يسمح آيليب لنفسه بنسيان عروسه صاحبة الشعر الذهبي، فبقي يراها دائماً جالسة أمام عينيه، وكانت رغبته تزداد بشدة لرؤيتها ولو من بعيد، ولكنه بقي يتذكر نصيحة المرأة العجوز ولم يجرؤ على فعل العكس.

ولكن عندما بدأت السنة الثالثة رأى آيليب فتاة شابة ومرحة وشعرها أسود وكلها تشبه العصفورة المرحة. وكان كل همها المرح واللعب، فسلبت هذه الفتاة عقل آيليب، وصار يفكر: "إن جميع الشبان في عمري صار لديهم أسر، بينما أنا وجدت

obeikandi.com

عروساً ولم أستطع الحفاظ عليها، ومن الجيد أنه لا أحد يعرف بذلك، وإلا كنت أصبحت سخرية الجميع. فلماذا لا أتزوج هذه الفتاة المرحة؟ فأنا لا أضمن أن أحصل على صاحبة الشعر الذهبي بينما هنا أدفع المهر وآخذ العروس، وسيفرح والداها بتزويجها وهي لن تحزن".

فكان يفكر بهذه الطريقة ثم يتذكر عروسه صاحبة الشعر الذهبي، ولكنه لم يتذكرها كالسابق فلم يعد يشعر بالحزن لحالها، بل يشعر بالانزعاج لأنهم أخذوها منه.

وما إن انتهت السنة الثالثة حتى رأى آيليب الثعلبة، ولم يستعد ليطلق عليها سهماً بل سار خلفها وصار يترك علامات على الأحجار والأشجار على طول طريق سيره، حتى وصلا إلى ذلك النهر، ورأى عروسه جالسة هناك، وجديلتها أصبحت أطول بمرتين، فاقترب آيليب وانحنى لها. وقال: مرحباً يا عروسي الحبيبة صاحبة الشعر الذهبي.

مرحباً آيليب، لا تحزن من أن جديلتي أصبحت أطول بمرتين، فقد أصبحت أخف وزناً. يبدو أنك بقيت تتذكرني بقوة، وكنت أشعر بأن الجديلة تخف وزناً مع كل يوم. ولكن في النهاية شعرت بأن الأمر توقف، فهل بدأت تنساني؟ أم منعك عني شخص آخر؟

سألته ذلك وهي تضحك، وكأنها تعرف حقيقة الأمر. فشعر آيليب بالخجل من الاعتراف فوراً ولكنه اعترف في النهاية وقال إنه كان ينظر إلى الفتاة المرحة صاحبة الشعر الأسود وكان يفكر بالزواج منها.

فقالت له صاحبة الشعر الذهبي: من الجيد أنك إنسان صادق، وأنا أصدقك، فدعنا نذهب سريعاً فربما نجحنا في الهرب هذه المرة إلى حيث تعجز قوة والدي عن الإمساك بنا.

فسحب آيليب جديلة عروسه من النهر، ولفها حوله وأخذ من الثعلبة المقص وسارا عبر الغابة إلى البيت. وكان آيليب قد وضع إشارات على طول الطريق، فسارا

بسهولة حتى حل الليل. فقال آيليب: دعينا نصعد إلى أعلى الشجرة لربما عجزت قوة والدك أن تطالنا فوق الشجرة.

نعم دعنا نفعل ذلك... ردت الفتاة.

ولكن كيف لهما أن يصعدا إلى أعلى الشجرة كلاهما وهما مربوطان بالجديلة. فقالت صاحبة الشعر الذهبي: علينا أن نقص الجديلة فعبثاً نحمل كل هذا الثقل معنا.

ولكن آيليب كان يحب شعرها الطويل ولم يستطع أن يقصه فقال لها: لا الأفضل أن نحافظ على شعرك هكذا، انظري كم هو ناعم ورقيق، فلدي رغبة دائمة بلمسه بيدي.

فك آيليب الجديلة عنه، وصعدت الفتاة الشجرة أولاً ولكنها لم تكن معتادة على تسلق الأشجار، فأخذ آيليب يساعدها قدر المستطاع، ثم أسرع آيليب خلفها ورفع جديلتها كاملة عن الأرض، وصعدا إلى أعلى الشجرة. وقال آيليب: سوف ننتظر هنا حتى طلوع الفجر.

وأخذ يربط جديلة عروسه إلى أغصان الشجرة، حتى لا تسقط ليلاً في حال نامت، وبعد أن ربطها جيداً قال: والآن نامي قليلاً وأنا سأحرسك، وما إن يبزغ الفجر أوقظك.

فنامت الفتاة سريعاً، ولم يستطع آيليب منع نفسه من النوم، وغمره نوم عميق لم يستطع طرده من عينه، ففرك عينيه وحرك رأسه، ولكنه لم يستطع التغلب على ذلك النوم، وطارت بومة فوق رأسيهما وهي تصيح، وكأنها تحذرهما أن:"احذرا الخطر". ولكن آيليب لم يشعر بشيء وبقي نائماً، ورأى حلماً وكأنه يعود إلى منزله وتخرج من المنزل زوجته صاحبة الشعر الذهبي لاستقباله، وأنها أجمل الجميع وألطف الجميع، وجديلتها الذهبية تلمع بنور الشمس.

وفي منتصف الليل سمع آيليب تكسر الأغصان واشتعالها، فلسعت النار آيليب

وأسقطته أرضاً، ولم ير سوى حلقة ذهبية ظهرت من أسفل الأرض وأن عروسه صاحبة الشعر الذهبي تحولت إلى نجمة من النجمات الذهبية وأن تلك النجمات طارت إلى الحلقة وانطفأت فيها، فاقترب آيليب من ذلك المكان وبحث بيديه كثيراً فلم ير شيئاً، ولم يجد شيئاً غير العشب والحجارة. فوجد في مكان نهاية الجديلة ففرح قليلاً وقال: "لقد تركت عروسي ذكرى لي. ويمكننا تحقيق أن لا تطال قوة والدها جديلتها".

وما إن فكر بذلك حتى رأى الثعلبة عند قدميه، فلمست الأرض بأنفها وتحولت إلى عجوز نحيفة، وقالت: آه يا آيليب، ماذا كنت تريد الجديلة أم العروس؟

أنا أريد عروسي مع جديلتها الذهبية.

تأخرت... قالت العجوز- فقد أصبح طول الجديلة أطول بثلاث مرات.

لا بأس... أجاب آيليب –إنه أمر ثانوي. علي أولاً أن أجد عروسي الحبيبة.

حسناً قل ذلك منذ البداية، إليك نصيحتي الأخيرة، اذهب إلى بيتك وانتظر ثلاث سنوات أخرى، ولن آتي لإحضارك مرة أخرى بل ابحث عن الطريق بنفسك، واحضر بعد مرور ثلاث سنوات تماماً ولا تتأخر ساعة واحدة، وانحن لجدك البوم عسى أن يزيدك ذلك عقلاً.

قالت ذلك واختفت وكأنها لم تكن، وما إن بزغ الفجر حتى ذهب آيليب إلى منزله وفكر في نفسه: "عن أي بوم كانت تتحدث؟ فالبوم كثير في الغابة. فأي بوم أنحني له؟".

وبعد تفكير تذكر كيف كان يجلس فوق الشجرة ورأى بوماً يطير فوق رأسه ويصيح، وكأنه كان يحذره ويصيح:"احذر الخطر".

ففكر آيليب:"لا شك أنها تحدثت عن هذا البوم"، وعاد آيليب إلى نفس المكان، وجلس حتى المساء وصار ينادي: يا جدي البوم، علمني ودلني على الطريق.

وبقي يصيح بهذه الطريقة ولكن لم يرد عليه أحد. ولكن آيليب صار أكثر

صبراً. فانتظر يوماً آخر وأخذ ينادي مساءً: يا جدي البوم.

فسمع من فوق الشجرة: نعم.. من يريدني؟

فحكى له آيليب مشكلته وطلب منه النصيحة، فقال له البوم: إنه أمر صعب يا بني، صعب جداً.

ليس المصيبة في أن الأمر صعب، لأنني سأبذل كل قوتي وصبري، كي أجد عروسي.

حسناً سأدلك على الطريق فاستمع إلي.

وحكى له البوم الأمور وفق ترتيبها: إن ملك الذهب لديه قوة هائلة في مناطقنا هذه؟ فهو سيد الذهب كله في هذه المناطق، ويستطيع أن يأخذ الذهب من أي شخص. وبمقدوره أن يسحب كل المكان الذي يظهر فيه الذهب إلى خاتمه. وحتى لو بقيت تركب حصانك ثلاثة أيام بلياليها لن تستطيع الهرب من هذا الخاتم. ولكن يوجد في مناطقنا مكان لا تصل إليه قوة ملك الذهب. فإذا استخدمت مهارتك فيمكنك ن تأخذ الذهب وتهرب من ملك الذهب. ولكن هذا الأمر سيكلفك غالياً، فليس من هناك طريق للرجعة.

فأخذ آيليب يرجو البوم: أرجوك دلني على هذا المكان.

لا أستطيع أن أريك المكان لأننا لا نتفق معك بالرؤية، فأنا لا أرى في النهار وأنت لا ترى في الليل.

فما الحل إذاً؟... سأل آيليب.

فقال الجد البوم عندها: سوف أدلك على علامة أكيدة. اذهب إلى البحيرات وتفحصها وسترى في وسط إحدى البحيرات صخرة في وسط البحيرة، تشبه الهضبة، ومن إحدى جهاتها تنمو أشجار السرو، وثلاث جهات عارية من أي شيء. ذلك هو المكان، فالذي يصل ومعه الذهب إلى تلك الصخرة ينفتح له طريق للأسفل، تحت البحيرة. وهناك لا يستطيع أن يطاله ملك الذهب.

obeikandl.com

فتذكر آيليب البحيرات الموجودة في المنطقة ووجد أن المواصفات تنطبق على بحيرة إتكول ففرح وصاح: أعرف هذا المكان.

ولكن البوم أصر على رأيه وقال: حاول أن تتفحص البحيرات كي لا تخطئ.

حسناً... قال آيليب – سأرى.

فأضاف البوم: - ولكن تذكر أنك إذا هربت من ملك الذهب فلا طريق للرجعة.

شكر آيليب الجد البوم وذهب إلى منزله. ووجد البحيرة سريعاً ورأى الصخرة في وسط البحيرة، وقال لنفسه:"لا يكفي يوم للوصول إلى ذلك المكان، يجب تجهيز طريق للخيل".

وبدأ آيليب يصنع طريقاً، ولم يكن هذا العمل سهلاً ليقوم به لوحده عبر غابات كثيفة. وصار يعمل كثيراً وعندما ينهكه التعب، يخرج من جيبه طرف جديلة عروسه وينظر إليها ويلمسها بيده فيشعر وكأنه استجمع قوته من جديد، فيعود ثانية إلى العمل. فمرت ثلاث سنوات بلمح البصر، وقد انتهى لتوه من تجهيز كل شيء.

وجاء خلف عروسه في الساعة المحددة تماماً، فأخرج جديلتها من النهر ولفها حوله، وركضا سوية عبر الغابة. فوصلا إلى الطريق الذي جهزه آيليب وهناك كانت تنتظرهم ست خيول، فأجلس آيليب عروسه على حصان وجلس على آخر وأمسك بلجام الخيول الباقية، وانطلقوا وكلما تعب حصانان جلسا على غيرهما، وكانت الثعلبة تركض في المقدمة وهي تحث الخيول على العدو خلفها. ومع حلول المساء استطاعوا الوصول إلى البحيرة. فركب آيليب وعروسه والثعلبة في زورق ونقلهم آيليب سريعاً إلى الصخرة وسط البحيرة. وما إن اقتربوا من الصخرة حتى انفتح ممر فيها، فأسرعوا في الدخول في ذلك الممر وفي نفس الوقت غربت الشمس.

وقد تحدثوا كثيراً عما حدث هناك، فما إن غربت الشمس حتى أحاط ملك الذهب البحيرة كلها بثلاث حلقات نارية، وانتشرت فوق الماء في جميع الجهات

obeikandl.com

شرارات نارية. ولم ينجح في إخراج ابنته من البحيرة. وكان البوم العجوز يزعج ملك الذهب. فقد جلس فوق حجر البحيرة وصار يصيح ساخراً. فما إن يصيح هكذا ثلاث مرات حتى تبهت الحلقات النارية، وكأنها أخذت تبرد. وما إن تشتعل من جديد وتعود الشرارات الذهبية للانتشار فوق سطح الماء، حتى يصيح البوم صيحة جديدة.

فحاول ملك الذهب أكثر من ليلة أن يخرج ابنته، ولكنه لم يستطع، فلم تصل قوته إلى ذلك المكان. ومنذ ذلك الحين ظهر الذهب على شواطئ تلك البحيرة. حيث لا يوجد أي آثار للأنهار في حين أن الذهب موجود. وكله ذهب صغير كالخيوط، بينما القطع الكبيرة غير موجودة. فمن أين للذهب أن يوجد هنا؟ فيقولون أنه ذهب من جديلة ابنة ملك الذهب. وهناك كثرة من الذهب. وأتذكر أنه في أيامي كانت تحدث خلافات كثيرة على هذا الذهب بين الباشكير وبين أصحاب المعامل .

أما آيليب فقد بقي مع زوجته صاحبة الشعر الذهبي تحت البحيرة. ولديهما هناك المراعي الواسعة وقطعان الخيل والغنم. بمعنى آخر حرية.

ويقولون أن صاحبة الشعر الذهبي تخرج إلى الصخرة أحياناً، وقد رآها الناس، فهي تخرج عند الفجر وتجلس، وتتدلى جديلتها الذهبية على طول الحجر. ويا له من جمال رائع.

ولكنني أنا شخصياً لم أرها ولا أريد أن أكذب.